

## المحاضرة الأولى:

### محاضرة تمهيدية (علم النفس الفارقي)

#### تمهيد:

يعتبر علم النفس الفارقي علما فرعيا لعلم النفس العام، وترجع تسميته لسنة 1900 من طرف الألماني وليام ستارن Willam Sterne.

يسعى هذا العلم لوصف وتفسير الاختلافات البيولوجية ما بين الأفراد وذلك بالاستعانة بالمناهج الموضوعية. كما يحلل ظواهر الاختلافات ما بين الأفراد التي نلاحظها في علم النفس الاجتماعي وفي علم النفس الفيزيولوجي.

عادة ما يتم تفسير الاختلافات الفردية بالرجوع إلى عوامل بيولوجية أو عوامل إجتماعية، لذلك يعد مشكل الوراثة- وسط هو واحد من المشاكل الكلاسيكية التي يهتم بها علم النفس الفارقي.

يمكن دراسة السلوكات من خلال الإهتمام بفئات خاصة: الحيوانات، الأطفال، المرضى عقليا. فمهما كانت النظرة المتبناة فإنه يمكن الإهتمام بظواهر التغيرات: يوجد علم نفس فارقي حيواني، علم نفس فارقي للنمو، وعلم النفس المرضي المرتكز بطبعه على حالات فردية.

يمكن لعلم النفس الفارقي أن يقدم كمنظور مقارن: يمكن للمقارنة بين الأفراد أن تساعد على الكشف عن قوانين بسلوكية عامة.

يمكن أن نهتم بسلوك الأفراد بقصد التدخل على هذا السلوك وهو ميدان علم النفس التطبيقي. يركز جزء من التدخلات التي يمكن أن نوحى بها على الملاحظة وعلى التفسيرات المقدمة للاختلافات ما بين الأفراد (علم النفس المدرسي، التوجيه المدرسي والمهني، تخصيص طرق التكوين، تكييف العلاجات مع شخصية المرضى، إلخ).

## 1. تاريخ:

ولد علم النفس الفارقي في نهاية القرن التاسع عشر في إنكلترا، في إطار التيار الفلسفي الإمبريقي كاستمرارية للنظرية الداروينية للتطور. مع ذلك، تعتبر الأفكار حول الاختلافات بين الأفراد أقدم من هذا التاريخ، حيث نجد في التاريخ اليوناني القديم أفكارا لفلاسفة وأطباء.

اعتبر أفلاطون (437-347 ق م) في "جمهوريته" أنه توجد 3 أنماط من الأفراد مطابقون لثلاثة أوجه للروح البشرية: "شهواتها ses appétits"، "العقل la raison" الذي يراقبها، "العاطفة la passion" المطابقة للحس الأخلاقي وتظاهراته. تسمح هذه الخصائص الفطرية للأفراد بالقيام بوظائف اجتماعية خاصة- المنتجون، المحاربون، المحامون- بحيث يكون المجتمع أصلح عندما يلتحق كل واحد بمكانته.

من جانبه اهتم أرسطو Aristote (384-322 ق م) بالفروقات البسيكولوجية بين السلالات وبين الجنسين وكذلك الخصائص الفردية الضرورية لممارسة بعض المهن.

وصف هيبوقراط (460-377 ق م) الأمزجة les tempéraments التي فسرها من جهة الأمزجة les humeurs والعناصر les éléments : الغضوب le colérique (هيمنة الصفراء البيضاء والنار la bile blanche et la feu)، السوداوي (هيمنة الصفراء الأسود والأرض)، البلغمي (هيمنة البلغم والماء) والدموي (هيمنة الدم). نجد في النمطية الحديثة للشخصية (المقدمة من قبل بافلوف) تشابهات قوية مع أنماط هيبوقراط.

### - نظرية الملكات la théorie des facultés :

قدم توماس ريد Thomas Reid (1710-1796) قائمة "بقوى الروح les pouvoirs de l'âme": أربعة وعشرون "قوى نشطة pouvoirs actifs" مثل: الجوع، حفظ النفس، التقليد، تقدير الذات، الرغبة في القوة، الرحمة، الواجب، التخيل، إلخ. وستة "قوى فكرية pouvoirs intellectuels" مثل: الإدراك، الحكم، الذاكرة، الحس الأخلاقي، إلخ. يمكن لهذه الملكات أو القوى العامة جدا، أن تظهر بدرجات متفاوتة الشدة عند أفراد مختلفين وتستدعي هكذا أبعادا للاختلافات الفردية.

## - نظرية التطور la théorie de l'évolution :

ترجع النظرية الأولى للتطور إلى جون باتيست دو لامارك **Jean-Baptiste de Lamarck** (1744-1829) الذي كان يعتقد أنه للمادة الحية نزعة طبيعية للتحسن *se perfectionner*. حيث تسمح التحسينات بتكيف أفضل مع الوسط كما أن الخصائص المكتسبة منقولة للخلف.

اعتقد تشارلز داروين **Charles Darwin** (1809-1882) مثل لامارك بأن التطور بطيء جداً، لكن ميكانيزم التطور المتخيل من قبل داروين مختلف عما تخيله لامارك، فبالنسبة لداروين التطور هو نتيجة للانتقاء الذي يحدث انطلاقاً من تنوع عشوائي ذو طابع وراثي. وهذه الأفكار ترجع إلى ملاحظة داروين لتغيرات بين أفراد النوع الواحد.

بالرغم من خضوعها لحتمية صارمة، تظهر هذه التغيرات باعتبارها عشوائية، أو عرضية *accidentelles* (مثل جزء من الصخر الذي سقط من ارتفاع يرجع شكله إلى حادث (داروين)).

تمت استعارة فكرة الانتقاء الطبيعي من الإقتصادي الإنكليزي **Thomas Malthus** (1766-1834) الذي رأى أن عدد السكان يزيد أسرع من الموارد، فيحدث صراع بين الأفراد من أجل البقاء تحت شكل حروب، أوبئة، مجاعات تعيد التوازن بين عدد السكان والموارد.

سهلت الداروينية تطور علم نفس موضوعي (مع خطر حقيقي متعلق بغض النظر عن بعض الظواهر التي تجعل أن الإنسان ليس تماماً حيواناً مثل الآخرين) وساهم في ولادة فرعين لعلم النفس: علم النفس المقارن الذي يحلل الاختلافات والتشابهات بين الأنواع الحيوانية وعلم النفس الفارقي.

يعتبر **غالطون Galton** (1822-1911) أول من وضع أسس علم النفس الفارقي، حيث استوحيت أعماله من عمل داروين، البيولوجيا، قياس الإنسان *Anthropométrie*، الإحصاء وعلم النفس الفارقي.

هدفت أعمال **غالطون** المتعلقة بعلم النفس الفارقي إلى: وصف وقياس التنوع البيولوجي ما بين الأفراد، تبيان أن هذا التنوع وراثي، استخراج إمكانية توظيف التطورية في تحسين النوع البشري.

من أجل ملاحظة التنوع الفردي، طور **غالطون** الاختبارات باعتبارها امتحانات تسمح بالملاحظة المقننة للسلوك. وهي تستوحي من الوضعيات التجريبية للمخبر ولكنها مبسطة حتى يمكن تطبيقها بسهولة على العديد من الأشخاص.

سعيًا منه لاختزال ملاحظاته وتقييم الاختلافات ما بين الأفراد، اخترع **فالتون** المعايير **les étalonnages** التي تسمح بتحويل قياس الأداء **la performance** إلى ترتيب **un rang**.

- تطور علم النفس الفارقي في فرنسا:

تطور علم النفس الفارقي في فرنسا مع ألفريد بيني وإدوارد ثولوز بشكل مستقل عن نظرية التطور وأعمال **فالتون**.

- ألفريد بيني **Alfred Binet** (1857-1911): كرس بيني وقته لعلم النفس بعد دراسات في الحقوق وبداية تكوين في الطب.

بالنسبة لـ **بيني**، يملك "علم النفس الفردي" الذي يتطابق مع ما نسميه اليوم "علم النفس الفارقي" وجهين: دراسة التنوع ما بين الأفراد لوظيفة ما وهو ما يقود لدراسة مؤشرات الذكاء التي تسمح لنا بالتمييز بين درجات الذكاء وترتيب الأفراد بالنسبة لسمة ما. دراسة تنظيم مختلف الوظائف عند نفس الفرد.

كرس **بيني** حياته للبحث عن مؤشرات الذكاء، وقد تثنى بحثه هذا بتطويره لـ "السلم المتري للذكاء" المعروف بـ إختبار سيمون-بينني الذي طبعت صيغته الأولى في سنة 1905 وكان هدفه تشخيص البله **la débilité** العقلي لدى المتمدرسين من أجل توجيههم إلى أقسام تحسين المستوى. لقد عرف هذا الاختبار نجاحا كبيرا، خاصة في الخارج وسجل بداية تطوير الاختبارات.

- إدوارد ثولوز **Edouard Toulouse** (1865-1947):

ثولوز هو طبيب عقل ينتمي لفريق الإغترابين **les aliénistes** (أطباء عموميون في مؤسسات عزل المغتربين عقليا).

اقترح ثولوز في سنة 1904 مع كل من هنري بيرون **Henri Piéron** ونيكولا فاشيد **Nicolas Vaschide** سلسلة من الاختبارات التي تم نسيانها سريعا بسبب إعطائها أهمية كبيرة للسيرورات الأولية **les processus élémentaires** (الحاسية بالأساس).

يرجع له الفضل في أولى الإنتقاعات المهنية التي حدثت خلال حرب 1914-1918 (انتقاء سائقي ترامواي باريس).

لم تعرف أعمال بينيه تطورات كبيرة في فرنسا وفي العالم الفرنكفوني. حيث دافع هنري ببيرون **Henri Piéron** في نفس اتجاه النظرة المتبناة من قبل ثولوز، عن نظرة للذكاء مختلفة عن تلك التي طرحها بينيه من خلال تأكيده على ضرورة تمييز الذكاء على مستوى التطور الفكري وعدم التمييز بين الأفراد على أساس عمرهم العقلي ولكن بملح الكفاءات. وبنى في هذا السياق، اختبارات استعملت ما بين الحربين من قبل مستشاري التوجيه المهني الأوائل، الذين كانوا الممارسين الأوائل في علم النفس في تلك الحقبة.

#### - تطور علم النفس الفارقي في إنكلترا:

تشكلت في إنكلترا، منذ **فالتون**، مدرسة أخذت تسمية "مدرسة لندن" أو "المدرسة الإنكليزية" وضمت مختصين في الإحصاء ونفسانيين.

من أشهر الإحصائيين الذين ضمتهم هذه المدرسة نجد: كارل بيرسون **Karl Pearson** (الذي تعاون مع **فالتون**) ورونالد فيشر **Ronald Fisher** (1890-1962) مخترع الإحصاء الاستدلالي وبالخصوص تحليل التباين.

أما النفسانيين، فنجد تشارلز سبيرمان **Charles Spearman** (1863-1945) مخترع أول طريقة للتحليل العاملي، سيريل بيرث **Cyril Burt** (1883-1971)، فيليب أفيرنون **Philip E. Vernon** (1905-1987)، ريموند ب كاتل **Raymond B. Cattell** (1905-1998)، هانس ج آيزنك **Hans J. Eysenck** (1916-1997) الذي يعتبر الممثل الأكبر لهذه المدرسة.

بقي النفسانيون المنتمون لهذه المدرسة **فالتونيين** جداً، معتمدين بشكل كبير على الطرائق الإحصائية المتطورة ومعتقدين بالدور المحدد للعوامل الوراثية في تفسير الاختلافات بين الأفراد وبين الجماعات. وقد استعملوا الاختبارات النفسية مبكراً مع بدايات سنوات 1920 بغرض الإنتقاء المدرسي.

#### - تطور علم النفس الفارقي في الولايات المتحدة:

عرف علم النفس الفارقي أقصى تطور في الولايات المتحدة، حيث عرفت المفاهيم التطورية لـ **Spencer**، نظرية داروين وأعمال **فالتون** نجاحاً كبيراً، لأن الثقافة المهيمنة هناك تثمن الفردانية، المنافسة والبراغماتية.

كان علم النفس الفارقي حاضرا بقوة في نهاية القرن 19 مع جيمس ماكين كاتل James McKeen Cattell (1860-1944).

تم تكييف السلم المتري لبينييه وسيمون في الولايات المتحدة من قبل هـ. فودارد H. Goddard في سنة 1911. كما قدم ل. تيرمان L. Terman في 1916 تكييفاً آخر هو ستانفورد-بينييه، والذي عرف نجاحاً كبيراً وتمت ترجمته في العديد من الدول بما في ذلك في فرنسا.

- تطور علم النفس الفارقي في الإتحاد السوفياتي:

عرف علم النفس الفارقي مصيراً مختلفاً في الإتحاد السوفياتي، فبعد بداية واعدة تم منعه في سنة 1936 لعدم موافقته مع الماركسية مثلما كان الشأن مع علم الوراثة الخاص بمندل Mendel.